سميرة عزّام والأدب النسائي

بقلم رجاء النقاش

عندما قرأت نبأ وفاة سميرة عزام شعرت بحزن عميق يملأ روحي، وحينما انتهت لحظة المفاجأة والصدمة ، فكرت في هذا الحزن الغامر : من اين جاء ؟ ... هو من جانب حزن شخصي ، فلقد كنت اعـرف سميرة عزام منذ عشر سنوات تقريبا ، وكنت اجد في شخصيتهـا نموذجا انسانيا ممتازا ، لقد تعودت ان تخفي عن الآخرين همومهـا لتعيش هي في هم الآخرين . وتعودت أن تعطي نفسها - باخـلاص وتواضع وامانة - للقضايا العامة التي تتصل بالمجتمع العربي كلـه اكثر مما تعودت أن تسجن نفسها مع القضايا الذاتية الخاصة ، ومثل هذا النموذج الانساني الذي تمثله سميرة كان جديـراً بأن يحتل مـن قلوب الذين يعرفونه مكانة رفيعة . على ان حزني على سميرة لم يكن مصدره هذه المعرفة الشخصية وحسب ، بل كان مصدره من ناحيـة اخرى معرفة ادبية طويلة ، فقد تابعت ادب سميرة عزام منذ سنـة ١٩٥٤ حتى آخر انتاجها المنشور ، ومنذ اللحظة الاولى وانا احس أن سميرة تقدم للادب العربي المعاصر نموذجا اصيلا ، وكنت واثقا ان هذا النموذج لن يلفت النظر بسهولة ، ويحنني الى جانب ذلك كنت واثقا من اصالته الفنية والفكرية ، ولقد كانت وفاة سميرة فجيعة ادبيـة بهذا المعنى ... فالآمال التي كنا ننتظرها منها لم تكن تقل خصوبة ولا غنى عن تلك التي حققتها بالفعل .

على ان الظروف التي ماتت فيها سميرة والتي تعلمونها جميعـا قد جعلت من موتها حزناً لا يمكن أن ينساه الانسان ، كما تعود البشر ان ينسوا احزانهم بمرور الايام . لقد ماتت وهي في طريقها الـى الاردن بعد فترة قصيرة من حرب الايام الستة الحزينة من يونيو١٩٦٧ ... وهكذا ارتبطت وفاة سميرة بجرح كبير من جراح امتنا العربية .. ولست أشك أن انفعال سميرة بالمأساة كان السبب الاول فـي وفاتها ... اقول ذلك وانا اعلم انها كانت مريضة وان الاطباء كانـوا يشعرون بخطر الموت يزحف على حياتها ... ولكن المرض بكل تأكيـد كان من الممكن أن يعيش معها - مستأنسا - لسنوات وسنـوات ... ولكنه الجرح الاكبر الذي اصاب العرب في الخامس من يونيو هـو الذي قضى - بالانفعال العنيف والشعور الطاغي - على حياة سميرة.

***

لعل من واجبنا هنـا الآن - وفاء لسميرة نفسها - ان نتـرك قليلا لغة الحزن والعاطفة لنتساءل : ماذا كانت تمثله سميرة عزام في الادب العربي المعاصر ولي على هذا السؤال اجابة قصيرة واجابـة اخرى مفصلة ، اما الاجابة القصيرة فانا اقولها بلا تردد ولا تأثر بأي ظروف خاصة قد يمليها جو التكريم لذكرى انسانة عزيزة راحلة ... فالانسان كما يقول جوركي ((لا يصبح احسن مما كان لمجرد انه مات))

... لقد كانت سميرة عزام افضل كاتبات القصة القصيرة في ادبنـا العربي المعاصر منذ ان اشتركت المرأة العربية في هذا الميدان الفني.. ميدان القصة القصيرة الى اليوم ، ان سميرة هي اميرة كاتبات القصة العربية القصيرة .. اقول هذا الحكم الفني مطمئنا اليه واثقا منـه كل الثقة راضيا بأي مناقشة فنية أو فكرية حوله . على أنني أحب أن أؤكد أن هذا الرأي لا ينقص من قدر عدد آخر من الكاتبات الجادات اللاتي يحاولن ان يصنعن شيئا له قيمة وله مستقبل في هذا الميدان.

هذه هي الكلمة العامة حول دور سميرة عزام في أدبنا المعاصر ، واذا سمحتم لي أن أوضح هذا الرأي بشيء من التفصيل ... فانني أرى الصورة في ميدان الادب الذي يعالج قضية المرأة العربية ويعبـر عنها على النحو التالي :

هناك مدرسة قديمة في النظر الى قضية المرأة العربية وفـي التعبير عنها ، وهذه المدرسة تنظر الى المرأة والى قضيتها كما كـان الآباء والاجداد ينظرون الى هذه القضية في عصر الحريم وعصر المماليك والجواري ، وأعتقد أن هذه المدرسة التي لا مفر لنا من تسميتها باسم المدرسة الرجعية قد استطاعت أن تخنق كثيرا من المواهب الفنيـة النسائية وتقضي عليها واذا جاز لي الآن أن أشير الى بعض المآسي التي أصبحت ملكا للتاريخ ، فليس هناك حرج على الانسان من أن يشير الى ما أصبح التاريخ يملكه ...

فانني اذكر لحضراتكم أن مصر قد عرفت منذ عشرين سنة تقريبـا شاعرة شابة اسمها ((ناهد طه عبد البر)) . وكانت هذه الشاعرة تكتب تحت اسم مستعار يتكون من الحروف الاولى من أسمها الحقيقي أي : ((ن.ط.ع.)) . وقد رفضت هذه الفنانة الشابة أن تكتب اسمهـا الصريح الكامل تحت ضغط الخوف من الفهم الرجعي للادب وللمـرأة على السواء . فقد كانت هذه الفنانة تعاني من الاحساس بأنه ليس من حق المرأة أن تفصح عن مشاعرها بالتعبير الادبي ، لانه اذا كانـت المرأة العربية قد كشفت حجابها المادي بعد معركة عاصفة ، فان كشف الحجاب الروحي مسألة أعصى من أي مسألة مادية أخرى . ولقـد ماتت هذه الفنانة الشابة في مقتبل العمر تحت تأثير الصراع المدمـر بين ارادتها الحرة والظروف الفكرية الفنية التي فرضتها على نفسهـا أو التي فرضتها عليها البيئة المحيطة بها . وقد كشف حقيقة مأساتها بعد وفاتها الناقد المصري الراحل أنور المعداوي ، فقد كانت هذه الفتاة المسكينة تكتب اليه بفنها وببعض أسرار روحها ، على أن انتاج هـذه الفتاة مع رسائلها الخاصة التي تتحدث فيها عن مشكلتها لم ينتشـر شيء منه حتى الآن ، باستثناء بعض القصائد المبعثرة في الصحـف والمنشورة تحت اسمها المستعار ، وأتمنى أن يرى انتاج هذه الفنانـة النور كوثيقة اجتماعية ان لم يكن كوثيقة فنية .

ومأساة أخرى من هذا الطراز هي مأساة الكاتبة الروائية((عنايات الزيات)) التي انتحرت بعد أن كتبت روايتها الاولى والوحيدة ((الحب والصمت)) وقد صدرت هذه الرواية منذ شهور في القاهرة . وفي تقديري أن بقايا الفهم الرجعي لقضية المرأة ولادب المرأة على السـواء هو المسئول عن مثل هذه المآسي ، وربما كانت هذه المآسي نفسهـا حالات متطرفة ونماذج شاذة ، ولكن الذي يواجهنا من آثـار هذه المدرسة الرجعية في انتاج بعض كبار الاديبات العربيات ليس بالقليل. فما أكثر ما نجد في بعض النماذج المعروفة من هذا الادب النسائي الكثير من التحفظ ، والخوف من أي بوح صادق ، والميل الـى التجريد والتعمية والغموض ... وكل هذه الظواهر ليست سوى ثمرة للتأثر بالمدرسة الرجعية في الفكر والفن والحياة .

على أن هذه المدرسة الرجعية القديمة تنهار يوما بعد يوم،والزمن يجرفها معه ولا شك مع أي بقايا أخرى لم يعد العصر يهضمها في الفكر والحياة .

بقي في ميدان قضية المرأة والتعبير عنها مدرستان ... أعتقد ان الصراع بينهما هو الصراع الحاسم والحقيقي ، وهو الصراع المدوي حقا في حياتنا الفكرية والاجتماعية المعاصرة ، وهو بعد ذلك كله الصراع

الذي يجب ألا نتركه للزمن ... بل ينبغي أن نحدد موقفنا منه ونساعد على حسمه .

فهناك مدرسة أدبية وفكرية تدعو الى حرية المرأة بمعنى خاص.. أسارع فأقول بكل صراحة انه معنى مستمد من حياة الصالونات، ومن حياة الارستقراطية العربية والغربية على السواء ، وأسارع مرة أخرى فأقول ان هذا المعنى هو أكثر المعاني زيفا ورخصا وتضليلا في فهم قضية المرأة ، وهو ثمرة الفراغ عند الطبقات الطفيلية غير المنتجة في المجتمع العربي ، وثمرة التقليد عند الذين يعتبرون مثلهم الاعلى هو حياة هذه الطبقات عندنا أو في الغرب ... فالمرأة عند هذه المدرسة هي المرأة التي تبحث عن المغامرة ، وتعبر عن قلق وهمس هو قلق الضياع وعدم الارتباط بحركة المجتمع الحقيقية . وخلاصة موقف هذه المدرسة في فهم المرأة والتعبير عنها ـ فكراً وفنا وصحافة ـ ان الحرية المنشودة للمرأة هي حرية التفريط وحرية النزوة وحرية العبث ، وأن من يسميه أصحاب القيم بالمرأة المنحلة يسميه أصحاب هذه المدرسة بالمرأة المتحررة .

ولقد استطاعت هذه المدرسة أن تجد في بعض العواصم العربية صحفا واسعة الانتشار تروج لها ، وتقدم الحماية والرعاية والدعاية والدعوة . وفي مصر بالذات حملت لواء هذه الدعوة مدرسة صحفية معينة ، تعفيني هزيمة هذه المدرسة وانهيارها أمام القيم الجديدة الاصيلة التي أرستها ثورة ٢٣ يوليو من تحديد اسماء أصحاب هذه المدرسة الصحفية ، وهي التي روجت لهذا الفهم الزائف لادب المرأة ولقضية المرأة على السواء . وقد حاولت هذه المدرسة الصحفية أن تنشىء مجلة نسائية ذات يوم تدعو لهذه القيم المنحرفة وتنادي بها ولكن هذه المجلة لم تستطع أن تعيش في مجتمعنا الجديد أكثر من أسابيع ثم أغلقت أبوابها بلا أسف عليها من أحد ومع ذلك كله فما زالت هذه المدرسة وخاصة في الميدان الادبي والفني في بعض البيئات العربية قوية مدعمة ذات نفوذ واسع .

أما المدرسة الادبية الثانية والتي تقف على رأسها سميرة عزام ، صاحبة الذكرى النبيلة التي نحتفل بها اليوم ، فهي مدرسة تقوم على عدة دعائم :

أولا : ترفض هذه المدرسة أن تجعل للمرأة قضية مستقلة عن قضية الرجل في مجتمعنا العربي ، وترى أن حرية المرأة مرهونة بحرية المجتمع كله ، وأن تقدم المرأة مرهون بتقدم المجتمع كله . وكل كلمة كتبتها سميرة عزام في مجموعاتها القصصية الاربع تؤكد هذا المعنى... كما أن سميرة عزام لم تصل الى هذه الفكرة بعد تطور أدبي وفني ، بل بدأت بهذه الفكرة منذ مجموعتها الاولى ، « أشياء صغيرة » حتى آخر كلمة كتبتها ، وحققت سميرة عزام كل تطورها في نطاق هذه الفكرة بالذات . وهذا الموقف العظيم والصحيح معا في ربط قضية المرأة بقضية المجتمع كله هو المدخل الصحيح لفهم قضية المرأة العربية، وهو الموقف الذي اتخذه قبل سميرة ومعها كل المفكرين والفنانين الكبار في ثقافتنا العربية المعاصرة ، وأذكر أن الرائد العظيم في الدعوة الى تحرير المرأة « قاسم أمين » كان يقول في مطلع هذا القرن : ان المرأة لا تفقد حريتها الا مع رجل يشكو من فقدان الحرية في مجتمع غير حر . ولذلك كان قاسم أمين في ذلك الوقت المبكر من هذا القرن يرى أن سر مأساة المرأة في المجتمع العربي هو أنه مجتمع خاضع للاستعمار. ويا له من تفسير جريء وسليم في ذلك الوقت البعيد .

واذا أردنا أن نشير الى نماذج أخرى في هذه المدرسة الادبية والفكرية التي تنتمي اليها سميرة عزام فاني أشير هنا الى نجيب محفوظ ذلك الفنان الكبير الذي كتب كثيرا عن المرأة العربية في مصر . وفسر مأساتها بأنها مأساة المجتمع نفسه ، ولعلنا كلنا نذكر شخصية حميدة في روايته المعروفة « زقاق المدق » تلك الفتاة الشعبية البسيطة التي خرجت من حي « الحسين » الى المجتمع الواسع العريض ، ثم سقطت وانهارت وكان السبب في سقوطها وانهيارها هو الانحلال الذي أشاعه الاستعمار الانجليزي في مصر خلال الحرب العالمية الثانية . ولقد كان نجيب محفوظ في تلك الرواية يؤكد أن مأساة المرأة هي مأساة المجتمع ، بل لقد جعل « حميدة » رمزا لمصر كلها كما يرى معظم النقاد ، أي أن مأساة المرأة هي مقابل موضوعي دقيق لمأساة المجتمع كله .

ثانيا : استطاعت سميرة عزام أن تصل الى هذه الرؤية الصحيحة الاصيلة لقضية المرأة العربية لسبب جوهري ـ في اعتقادي ـ هو أنها اختارت نماذجها من الطبقات الشعبية ، حيث تبدو الحقيقة الاجتماعية والوطنية والانسانية واضحة بل ساحقة في وضوحها ، ولقد استطاعت سميرة أن تقرأ نماذجها الانسانية فتحسن قراءتها ، واستخرجت كل القيم العامة والافكار الرئيسية ، وفي الحقيقة لم يكن أمام سميرة عزام ـ بطبيعتها الفنية والنفسية ـ الا أن تتجه الى هذه النماذج بالذات . لان المدرسة الاخرى التي تزيف قضية المرأة بحجة الحديث عن المثقفات والحائرات والغاضبات والثائرات ... هذه المدرسة انما تعتمد على الاختيار السطحي السريع لنماذج من الطبقات الارستقراطية أو شبه الارستقراطية أو المقلدات للارستقراطية ... وفي مثل هذه البيئة تضيع كل الحقيقة الفنية والفكرية وتنطمس الرؤية الانسانية تماما . لقد ابتعدت سميرة عزام بنبوغها الفني والانساني عن هذه النماذج لانها لم تجد فيها ـ كما هي في الحقيقة ـ الا قشرة زائفة لا تعطي شيئا عن حقيقة الناس الذين يعيشون في المجتمع العربي .

ثالثا : كانت سميرة تحمل في قلبها دائما مأساة فلسطين سواء عبرت عن ذلك مباشرة أو عبرت عنه بطريق غير مباشر .

رابعا : أعتقد أننا لا نصطنع أي حكم نقدي ان قلنا أن أدب سميرة عزام هو أدب ثوري ، بمعنى أنه يخدم ويكشف الحقيقة الاجتماعية التي يمكن أن ينطلق منها التطور الصحيح . فلا يمكن أن ينطلق التطور الاجتماعي من قلق فتاة أرستقراطية تبحث عن عشيق تلهو به ويلهو بها ، ولكنه يمكن أن ينطلق من قلق فتاة بسيطة تبحث عن علم أو عمل أو حبيب حقيقي يشاركها تجربة الحياة . ومن خلال مثل هذه النماذج استطاعت سميرة ان تصور هموم المجتمع الصحيحة ، واستطاعت ان تصل الى الثورية في الادب ، من نفس الطريق الذي وصل منه فنان مثل نجيب محفوظ ... طريق الفهم ، والعمق ، والارتباط بالنماذج الغالبة على مجتمعنا العربي .

خامسا : هناك بعد ذلك قضية العاطفة الانثوية في أدب سميرة . لقد تحدث بعض سخفاء الادب وأصحاب النظرة المشوهة الى المرأة بل والانسان مما فقالوا : ان أدبها يخلو من العاطفة بل ومن الانوثة . واذا كان مفهوم العاطفة أو مفهوم الانوثة هو العرض المحموم المريض لبعض التوترات المراهقة ، أو التركيز على الاستمتاع بتقديم الصور الجنسية أو المشاعر الجنسية بدون أي مناسبة أو مبرر أو فكرة ... اذا كان الامر كذلك فان أدب سميرة وأدب أي كاتبة اصيلة ممتازة يخلو من العاطفة ومن الانوثة بهذا المعنى المنحرف ، أما اذا أردنا التعبير الانساني الصادق عن العاطفة وعن الانوثة فاننا سوف نجد في أدب سميرة نموذجا رائعا حقا . لماذا ؟ لانها لا تضع العاطفة ولا الانوثة أبدا في اطار خاص وتعزلهما عن الحياة ثم تركز رؤاها وصورها الفنية عليهما . وهي لا تعزل أبدا بين مشكلة مثل مشكلة الجنس وبين مشاكل الحياة الاخرى ، ان الجنس هو جزء من الحياة وليست الحياة جزءا منه . ثم ان الانسان ـ امرأة كان أو رجلا ـ لا يجعل حياته من أجل الجنس وانما الجنس هو في النهاية من أجل الحياة . ولذلك جاء

أدب سميرة الذي تصور فيه المرأة تعبيرا عن حياة المرأة العربية بكل مشاكلها ومن بينها المشكلة العاطفية ، كل ذلك دون أن تعطي لبعض المشاكل حجما شاذا وغير طبيعي . فالذين يفعلون ذلك وخاصة في موضوع العاطفة وموضوع الجنس انما يقصدون الى الاثارة والتجارة لا الى الفن الصحيح الصادق .

هذه هي الدعائم التي تعطي لسميرة عزام قيمتها الفكرية والفنية في حياتنا الثقافية المعاصرة ، وكل هذه الدعائم قد أصبحت ذات مغزى كبير لان سميرة عزام قبل كل شيء هي صاحبة موهبة فنية عالية . وقد استخدمت سميرة موهبتها كما يفعل الفنان الذي يشعر بتجربة أهله وأمته ويضع فنه في خدمة هذه التجربة .

***

لست أزعم أن هذه الصورة التي أقدمها لكم كاملة أو شبه كاملة فهي ولا شك صورة ناقصة وبحاجة الى مزيد من الضوء . وعلى كل حال فانني أعتقد أن سميرة عزام قد أصبحت ملكا للتاريخ وسوف يقول النقد العربي عنها الكثير . ولكنني أحب قبل أن أترك هذا المنبر أن أثير في سرعة قضية أحس أن من واجبي أن أثيرها بينكم اليوم . لقد عاشت سميرة عزام حياتها الادبية دون أن تحقق لنفسها شعبية واسعة كانت تستحقها قبل غيرها . وكان انتاجها ـ كما وكيفا ـ يؤهلها للحصول على هذه الشعبية الواسعة . واذا قارنا ما حصلت عليه سميره في هذا الميدان بما حصلت عليه صاحبات المدرسة الاخرى التي تحدثت عنها في البداية لوجدنا تناقضا مؤسفا . وأعرف اسم واحدة من هؤلاء الكاتبات لا تكاد كتبها تظهر في السوق حتى تنتهي في ساعات. ويعلم الله ، وتعلم كل مقاييس الفن أنها ليست فنانة على الاطلاق. بينما المجموعة القصصية الاولى التي اصدرتها سميرة عزام سنة ١٩٥٤ ما تزال موجودة في السوق حتى اليوم وقد أعطاها لي صاحب احدى المكتبات مجانا . ولست أريد أن أجعل هذه المناسبة فرصة للنواح والعويل على حظ سميرة ومدرستها الفنية . ولا أريد أن أحسد صاحبات المدرسة الاخرى على شهرتهن وانتشارهن الكبير ، ولكني أريد أن أقول شيئا أحس به وينقل ضميري : اننا أيها الاخوة لا نتطرف في ايماننا بما هو عدل وحق في ميدان الفكر والفن ، بينما يتطرف الآخرون ويبذلون من أجل ما يريدون كل ما يملكون . ومن هنا فاني أطالب أيها الاخوة ـ ونحن أسرة سميرة عزام الفكرية والمسئولون عن مصيرها الادبي في حياتها وبعد موتها ـ أن يكون احتفالنا اليوم بسميرة عزام مناسبة لدعوة الى التطرف الحقيقي في الدفاع عما نؤمن به . ولا يعيبنا في دفاعنا عن قضايانا أن يكون لنا أصدقاء وأعداء ، فالذي لا أعداء له لا يستحق أن يكون مفكرا أو فنانا ، ولا يستحق حتى أن يكون انسانا . ان قضايانا العادلة أيها الاخوة في ميدان الفكر والفن تمشي على أطراف أصابعها كأنها خائفة أو كأنها خاطئة . وهذا وضع شاذ يجب أن نتخلص منه حياتنا الثقافية ، فلا يجوز أبدا أن نعيش في ظل هذا التقليد المؤلم : وهو أن نهمل قضايانا الحقيقية حتى نصاب بالفجيعة كما أصبنا بفجيعة سميرة . فلنستيقظ ونحاول أن نصرخ وننذر .

ان بامكاننا بل ومن واجبنا أن نسبق الفجائع التي تحل بنا ، وأن نضع القضايا التي نؤمن بها في موضعها الصحيح ... قبل أن تجرحنا الايام ، وقبل ان نستيقظ على حزن يملأ القلب ... وقبل أن نصيح بعد فوات الاوان .

وأخيرا ... فلتعش ذكرى سميرة عزام وردة لا تعرف الذبول لتلتقي حولها في كل ربيع عربي ... واعد بالثمار ... واعد بالحياة ... واعد بالعودة الى الارض المسروقة ... واعد بانتصار كل ما دعت اليه سميرة عزام من قيم شجاعة وجميلة .

رجاء النقاش

صدر حديثا

باباهمنغواي

بقلم ا. هوتشنر

ترجمة ماهر البطوطي

هوتشنر صحفي شاب أقبل على همنغواي يطلب منه حديثا ادبيا وهو يقول له : « اذا لم تعطني الحديث ، طردوني من الصحيفة » فاستجاب الروائي الاميركي الكبير للصحفي الذي اصبح صديقا يلازمه كظله طوال اربعة عشر عاما ، حتى موته .

و « بابا همنغواي » هو الكتاب الذي اصدره هوتشنر اخيرا عن حياة همنغواي وكتبه باسلوب روائي شبيه باسلوب همنغواي نفسه ، وكشف فيه النقاب عن ان الكاتب الاميركي انتحر انتحارا ، ولم يقتل خطأ وهو يقلب مسدسه ، كما زعمت زوجته التي اقامت الدعوى الان على هوتشنر بسبب الاسرار الكثيرة التي كشف عنها في كتابه والمتعلقة بحياة همنغواي الخاصة ، ومنها اتهامه باغواء فتاة قاصرة في اسبانيا ومحاولته التهرب من دفع الضرائب الخ ..

كتاب ممتع لا يزال يثير ضجة كبيرة في اوساط العالم الادبية .

منشورات دار الاداب